أفق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عبد الكريم غلاب
سيـــرة الكتابـــة الروائيـــة والقصصيـــة (*)

(*) نصوص المداخلات المقدمة في ندوة تكريم عبد الكريم غلاب (اتحاد كتاب المغرب، فاس 10/11 ماي 1991)

«سَبعـة أبـواب» : شَخْصيّـة الأنـا

□ عبد القادر الشاوي

قُرئت (سبعة أبواب) [1] في بعض الدراسات النقدية التي أنجزت حولها كعمل روائي تام، ويمكن اعتبار هذه القراءة مبدئيا قبلية، لأن هاجس تأطير النص منهجياً أملى جملة من المحددات، الثابتة أو المفترضة، أُوقفتْ إجراءها كله عليه في «سيرورته» السردية من منطلق البحث عن خواص الجنس الأدبي، بنياته وموضوعه وعلاماته، وقد انتهتْ هذه القراءة القبْلية إلى درجة من الفتور في تناول النص، التبس، في الغالب، بأحكام تنتقص من قيمته أو ترفض بنية تشكّله أو تعتبره، بعد هذا وذاك، دون مستوى الإطار الروائي أصلاً [2].

ولا شك أن الاختلال الحاصل هنا بين فرضية النقد (الرواية ؟) والنتائج المستحصلة من الدرس النقدي (ما قبل الرواية ؟) هي التي قادت، في معظم الأحيان، إلى استصدار أحكام خاصة وقعتْ فوق النص ولم تصدر عنه.

ولم يَكن الأمر، في جميع الأحوال، متعلقاً بالمنهج وحدهُ، أي ــ بعبارة أخرى ــ بما نفترضه لأنفسنا في البحث من أدوات تساعدنا على الفهم والتحليل والتأويل، ولكن أيضاً بالتصورات الشائعة التي غالباً ما نستوعبها تلقائياً كجزء من الثقافة الفاعلة في وعينا وفهمنا واختياراتنا، وكذا بحكم المثاقفة أو درجة احتكاكنا بمختلف المراجع الثقافية والفكرية المُنتجة في سياقات مغايرة. وهو ما يعني أن النقد، بحكم استناده إلى رؤية معينة، لم يصلح في الغالب الا لتوسيع المعارف والأحكام، وأن المكون الثقافي لم يعمل بدوره الا على تشريعها كمسلمات في بعض الأحيان.

1. تأليف عبد الكريم غلاب. دار المعارف بمصر 1965، 204 ص.
2. انظر : الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، حميد لحمداني الطبعة الأولى 1985. دار الثقافة.

يضاف إلى هذا أن (سبعة أبواب) في طبعتها الأولى جاءت عفلا من أية إشارة تُجنّس مبناها، أي تُرشد بِنَعْتٍ لعلامة قد توجه القارئ أو الناقد لإطار معين من أطر الأدب في تاريخيته أو تداوله البرغماتي. فنحن لا نقرأ على الغلاف الأمامي سوى العنوان المجرد (سبعة أبواب) حرفياً أو مُؤَوَّلاً، متبوعاً باسم مؤلف النص، فضلاً عن الرسوم المشكلة لمساحة الغلاف (سبعة مفاتيح بأحجام مختلفة والألوان.. ودار النشر والعلامة المميزة..). على أننا سرعان ما نكتشف، على فرض أننا في حلّ تام من كل مؤثر، أن على ظهر الغلاف ما يفيد إفادة قطعية بأن هذا النص «ذكريات تصور تجربة حية عاشها الكاتب فعلاً، وهي تجربة السجن ستة أشهر رهن التحقيق أيام الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي لتحرير الوطن المغربي من سيطرته»، وهي أفادة كتبها ناقد مبرز (محمد مندور) وانزاحت عن سياق الخطابي المقدماتي الذي يتصدر النص، لكي تُوظف، بدوافع لا يمكن التكهن بكل مراميها، ولعل إحداها تعرية مفاصل متن يراد له، في نظر الناشر أو المؤلف، أن يعبر عن قيمة رمزية كاشفة في نظر القارئ.

وهذه الإفادة، في الواقع، قراءة أخرى أريد لها أيضاً، بتصور منهجي يتوي خلف بعض التعريفات، أن تؤطر النص ضمن جنس محدد (هو المذكرات). ومن خواص هذه القراءة أنها قررت للنص حقيقة مفترضة وقع التأكيد عليها بالفعل، مثلما ألفت بين الكاتب ونصّه، أي بين (عبد الكريم غلاب) و (سبعة أبواب)، على ضوء ما في هذا التأليف من ترابط تعكسه التجربة المعاشة (تجربة السجن أشهر).

ويمكن اعتبار هذه القراءة خارجية أيضاً، لأنها لم تضع للجنس (المذكرات) الذي يُراد تأطير النص فيه أي مرجع، سوى أن تكون قد استنتجت، من خلال القراءة، ما يفيد في تحديده كذلك، ومع أن هذا الاستنتاج قد يبدو مبرراً إذا حكمنا ما قد نصطلح على تسميته «بالمؤشرات الخفية» (أي علاقة المُقَدّم بالمؤلف، عناصر متداولة عن التجربة المعاشة، معطيات أخرى..)، إلا أن وروده في نصّ موازي آخر (المقدمة) لا يفيد كثيرا في استجلاء معميات النص الأصلي.

الأنا النصي الفاعل

قراءتان مختلفتان (قبلية، خارجية) في تحديد جنس المقروء تنمان عن تباين واضح في تقدير طبيعة النص أيضاً، وهو ما يعني، في آخر الأمر، أن كل قراءة نقدية ليست سوى مشروع محتمل لاختيار درجةٍ من درجات التأويل الكامنة في كل نص إنْ على مستوى اللغة أو التركيب أو الدلالة. وهو إذن ما سنحاول تجريبه من زاوية مغايرة.

ذلك أن (سبعة أبواب)، إذا شئنا أن نقترب قليلاً من هذا النص المقرد في تجربة عبد الكريم غلاب الأدبية، ينبني على شيء يُوهم به، ونعني بذلك، في المقام الأول، ما يستشعره القارئ، بحكم مراجعه الثقافية المختلفة، من إيحاء ضمني بأن النص المقروء على علاقة معينة بتجربة حياتية مفترضة، وأن السارد فيه إنما يتطابق مع المؤلف الفعلي، بل إن الكثير من المراجع التاريخية المبثوثة في ثناياه تؤرخ، بأكثر معاني التأريخ دلالة، لحقبة زمنية معينة في حياة مغرب ما قبل الاستقلال. ومن

البديهي أن نقول إن الإيحاء الضمني المشار إليه يتعزز بهذا التصريح التاريخي، بل وينتج ميثاقاً محدداً ندعوه (ميثاق الواقعي).

ومع الإقرار بأن النص يحمل من الاشتباه، إنّ حكّمنا قراءة نقدية حذرة لا تتمنطق بالمصادرة، إلا أن ما قد يثار في وجه هذا الاشتباه المحتمل من أسئلة يحمل بالضرورة على اقتراح مداخل أخرى للقراءة. إذ الملاحظ مثلا أن الطبعة الأولى من هذا النص (سبعة أبواب) صدرت بمصر (عن دار المعارف) عام 1965، ومن المرجع أن يكون عبد الكريم غلاب قد كتبه قبل ذلك بوقت ومهما يكن من أمر فإن زمن الكتابة متأخر عن زمن السرد التذكري فيه بما لا يقل عن عقدٍ من الزمن، وذلك لأن الأحداث المروية تتصل بفترة زمنية سابقة، لنا عليها في النص أكثر من قرينة (انظر ص 11 وما بعدها)، فيما جاءت الكتابة، بمعنى ما، لكي تستخلص هذا الزمن من مجراه التاريخي ومن منظور آخر على ضوء المسافة الفاصلة، ومن حاضر الكتابة في تاريخيتها وزمنها أيضاً، ولا تتوقف المسألة فقط على تباين الزمنيْن على مستوى سياق الأحداث وكذا فيما يرجع لدوافع الكتابة (أي علاقة الماضي بالحاضر)، بل وتجعلنا تلقائياً أمام عنصر جديد غير مفكر فيه هو عنصر الذاكرة، أو ما تحصّل من الذاكرة من وقائع وتصورات وخيالات أيضاً وعلى مسافة، ذلك أن من العلامات الظاهرة في هذا العمل أن زمن الكتابة فيه محكوم بذاكرة زمن السرد، لأنه يعيد إذنْ صياغة ماضٍ ولى صياغة لغوية وتركيبية خاصة، لها سياقها ودوافعها ومنطقها. وهو ما يعني كذلك أن الحاضر بقدر ما يصبح، على مستوى الكتابة، لحظة صياغة للماضي، بقدر ما يصبح هذا الماضي، من خلال الذاكرة الحافظة، مجالاً تركيباً في الصّوغ والإبانة، وقد يكون هذا الماضي تاريخياً كما هو الحال في (سبعة أبواب) ولكن تاريخيته، في جميع الأحوال، مُتصوّرة، أو تحولت من خلال الكتابة السردية إلى فضاء يتسع للتأويل مثلما ينفتح على الاشتباه [3].

ولذلك فمن الطبيعي أن يُنظر إلى هذا العمل كنص يتحدد بقيمته المرجعية كخاصية من خواص النصوص السيرذاتية، أي أن (سبعة أبواب) تكشف عن لون من ألوان التعبير الذاتي الخاص، وتدخل ضمن كتابة التأريخ للأنا، من خلال عنصرين هامين :

1. الأنا، أو ضمير المتكلم الفاعل :

وهو التعبير النحوي المتعدد، في اتصاله وانفصاله، الذي يؤكد الفعل الفردي للتلفظ في النص وقد لا يكون من المفيد، توخياً للاختصار، تتبع مختلف تمظهرات هذا (المورفيم) بوصفه الوحدة الأولى الحاملة للمعنى، فهو مبثوث في مختلف أجزائه ووحداته، بل ويفتتح النص ويختتمه، ولذلك فقد تكون الاحاطة بثلاثةٍ من مستوياته كافية لتقعيد هيمنته واشتغاله على مستوى تحويل اللغة إلى خطاب.

أ. فهو يرتبط، من الناحية اللغوية، بقرينتين يمكن الاصطلاح على تسميتهما بـ (الحركة) و (الهيئة). إذ نجد أن من مظاهر الحركة اقتران الأنا بتصرفات متوالية تابعة من إدراك الفعل المراد إنجازه

3. وهو المعنى الذي قال فيه (باختين) : إن الفن يخلق شكلاً جديداً، كعلاقة جديدة بديهية، بما قد أصبح حقيقة (واقعية) بالنسبة للمعرفة والفعل انظر.
— Esthétique et Thèorie du roman. éd. Gallimard 1978. p. 45 et s.

(كالمعرفة والمباغتة والرغبة والدهشة والتفصيل... الخ). وتخضع الحركة بفعل ذلك لشعور الأنا السارد في انتقاله بين أجواء متغايرة ولكنها متداخلة (مثلاً : من الحرية قبل الاعتقال، الاعتقال، إلى الكهف، إلى السجن، فإلى الحرية مجدداً..) وكذا في انتقاله من البسيط إلى المركب (أو من فرديته إلى جماعية المحيط الذي اندمج فيه). مثلما تخضع للظروف الباعثة على ذلك (الخارج، الداخل، ثم الخارج). وفي جميع هذه الأوضاع تقوم الأنا، بوصفها أيضاً ضمير المتكلم، بالتعبير عن الانسجام المفترض في ذات الشخصية الساردة (الاعتقال طبيعي، السجن ضريبة، الحرية حق. الخ..).

أما قرينة الهيئة فتتصل بالأنا في تعبيرها عن ذات الشخصية الساردة حصراً، وذلك من خلال الحالات الكاشفة عن الوضع النفسي (حزن، معاناة، فراق..) أو السلوكي (مقاومة، تحدي، نضال..) أو الفكري (التأمل، الاستخلاص، مثل..). ولكننا نجد هذه الأنا، في المستوى الثاني، أي من حيث التركيب، متعلقة بهيمنة السارد العليم بذاته على امتداد النص، فهو من هذه الزاوية لا يكتفي بالوصف (ص 20) والسرد وخلق الحكاية وتشكيل الحوار فقط، بل و «يكتب»، إن جاز القول، تجربته الخاصة في نطاق ما عاشه من أحداث ومواقف بمختلف التفاصيل الناظمة لها، كما نجده أيضاً في أجزاء مختلفة من النص على بينة من سيرورة الأحداث وتجليات تلك المواقف ضمن دائرة اشمل من اهتمامه بالعالم من حواليه.

وربما كان المستوى الثالث، أي من حيث الدلالة، أقوى في تعبيره عن سلطة الأنا، لأن السارد هنا يتواصل مع نفسه (من خلال تجربة الاعتقال وما أحاط بها)مثلما يتواصل مع الفضاء (مركز الشرطة، الكهف، السجن، الحرية..) وكذا مع الشخوص «المعطين» الذين تقاطع معهم أو انوجدوا في نفس السياق النصي والحدثي الذي تسجه سردياً (الحارس، إيال مالي، قويلة، البارزيان... الخ).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

2. التاريخ، أو مجال السرد :

وهو التعبير الحدثي عن مجموعة من الوقائع المؤلفة للنص، ويمكن أن نجد ذلك في تجليات مختلفة.

أ. الوقائع نفسها، وهي تندرج في النص كخلفية تاريخية تساعد، انطلاقاً من مراجع ثقافية متعددة يتبناها القارئ، على فهم مجريات الأحداث التي يتحرك فيها النص وهي أحداث موثقة ويسهل استنباطها من مصادر تاريخية مختلفة، وللوقائع هنا وظيفة إيديولوجية، لأنها بقدر ما تُحقّبُ النص في تاريخيته بقدر ما تعطي الانطباع عن حقيقتها، مع أنها «حقيقة» مروية من طرف السارد الذي يتولى الأحالة عليها. (أحداث 16 غشت بوجدة، نفي الملك محمد الخامس في 20 غشت 1953، الحديث عن الجماعة الاستقلالية، حركة القواد الكبار بقيادة الكلاوي... الخ).

ب. التاريخ كمرجع، والمقصود بذلك أن يقرأ النص أيضاً، على هذا المستوى، خارج الوقائع التاريخية المباشرة والدالة كإحالة على تصور معين لمجرى الوقائع التاريخية نفسها، بل يمكن القول، بنوع من التساهل، أن التاريخ هنا كمرجع له بُعْدٌ فلسفي، ولا يمكن استنباط هذا البعد الفلسفي إلا بالاحتكام إلى زمن كتابة النص. أي أن السارد، بحكم مركزيته في النص، يعتمد الوقائع المروية أو

المؤرخة للإحالة على تصور خاص للسيرورة التاريخية. ويمكن الاستنتاج بسهولة مثلاً أن فكرة نهاية (عهد الحماية) وتحقيق الاستقلال (وهو ما لم يكن ظاهراً ولا وارداً زمن السرد) هي من مستخلصات التفكير البعدي في أسلوب استرجاع المعطى المرجعي للتاريخ. ومثلها فكرة الصراع بين (الحق والباطل) الكامنة ضمنياً في خطاب السارد. بل وأجد شخصياً في (سبعة أبواب) شهادة ضمنية على تحول من (وضع إلى آخر) لعل من دلالاته الظاهرة ترقب فترة زمنية ولّت من منظور فترة زمنية أخرى أقبلت.

ج. التاريخ كمعرفة، وهو مكون نصّي يتفرع عن دور السارد كما عن طبيعة أداته الوصلية (أو الاجرائية)، أعني ضمير المتكلم الأنا، إذ أننا عندما نقرأ (سبعة أبواب) كخطاب محوّل بهذه الأداة (الأنا) نستطيع الوقوف على مجموعة من التيمات (الاعتقال ـــ النضال، الوطن... الخ) تتعاقد، سواء بتواترها أو بدلالاتها، على تشكيل ما يمكن تسميته بـ (التجربة الذاتية الماضوية)، أي أن (سبعة أبواب) على هذا المستوى بالذات، تقول بالتاريخ كمعرفة ما يصوغه السارد بخطابه عن ذاته من أمجاد (مثلاً : الاعتقال في سبيل قضية وطنية ـــ النضال ضد الاستعمار..).

برغماتية الإسم الواقعي

إن التشديد على هذين البعدين، أقصد (تجليات الأنا النصّي الفاعل والتاريخ في مجال السرد) يفرض من الناحية المنهجية إعادة النظر في جنس هذا العمل (سبعة أبواب) على ضوء محددات جديدة مستخلصة من النص ولكنها لا تقتصر عليه، أي تتعداه إلى ما يضمره الاسم الواقعي للمؤلف من عناصر إضافية لا يمكن تجاهلها في عمليتي التوصيف والتجنيس.

والواقع أننا نشير بهذا إلى درجة أخرى من البحث تتعلق، هذه المرة، بما يمكن تسميته [4] «برغماتية الاسم العلم»، أي بـ (عبد الكريم غلاب) المؤلف، وضمنياً بذلك الأنا النصّي الفاعل المبهم المتحكم في النص. إن درجة البحث هذه تتصل بالمظهر البرغماتي لِلّغة [5] أو تلك المميزات الخاصة باستعمالاتها (كالحوافز السيكولوجية للمتكلم، ردود فعل المخاطب، موضوع الخطاب) من جهة، وكذا بالميثاق الإحالي الذي تحفل به (سبعة أبواب) من جهة أخرى.

فعلى المستوى الأول يمكن القول بأن الأنا النصّي يحيل ضمنياً على اسم واقعي معروف هو (عبد الكريم غلاب) الذي لا أستطيع أن أتجرد من «معرفتي به على مستويات مختلفة من الوجود والحياة (مسؤول في هيئة سياسية، صحفي ومدير جرية «العلم»، صاحب تآليف أدبية وتاريخية وسياسية... الخ)، لأن الاسم الواقعي كما يقول (ف لوجون) له «ما يشبه القوة المغناطيسية» يشع بالحقيقة ويؤلفها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

4. أنظر — Moi aussi, Ph. le jeune. éd. seuil 1986 p. 70 et suivantes.
5. في تعارض مع المظهر التركيبي (الخصائص الشكلية للاستعمالات اللسانية) والمظهر الدلالي (العلاقة بين الوحدات اللسانية والعالم).

أما على المستوى الثاني، فمن الواضح أن العلاقة التي يعقدها القارئ مع نص بهذه الصفة تتفرع عن الميثاق الاحالي، لأن هذا الميثاق بمثل ما يُظهر واقعية الأسم العلم يُظهر أيضاً جملة من الوقائع، كما قدمنا، تستقل عن النص بحكم سياقها التاريخي، ولكنها متدمجة فيه بحكم سياقها السردي، وحتى حين نرفض وجود أي رابط بين السياق الواقعي للتاريخ والسياق التاريخي للسرد، فإننا لا يمكن أن نلغي معرفتنا الثقافية بنوع من التواطؤ الحاصل بين السياقين على مستوى الاحالة.

إن (سبعة أبواب) نص يتجاور فيه المنغلق مع المنفتح، إذ يبدأ النص من الخارج (حياة خاصة، نضال، وجود استقلالي..) ويتجه إلى الداخل (الاعتقال، الكهف، السجن..) ثم يعود إلى خارجه (الحرية). وداخل هذا النص هو مركزه، لأنه مثوى الوقائع وسياق الشخوص ومستودع الحكايات، ومن باب التأكيد هنا أن الداخل / المركز هو الذي يخلق الميثاق الاحالي على مستوى القراءة، ويخلق في ذات الآن واقعية الأسم العلم بوصفه سارداً وشخصية ومؤلفاً في نفس الوقت.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com